﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ[1] أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

و (لو) حَرْف شَرْط يلزم لها جوابُ شَرْط ، وقد ترك الحق سبحانه جواب الشَّرْط هنا اعتماداً على يقظة المُسْتمع . وإنْ كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتى من قَوْل الله سبحانه ؛ فهو كامل فيمن تكلَّم ، وقد تركها ليقظة المُسْتمِع للقرآن الذى يتدبر المعانى ، ويتذكَّر مع هذه الآية قوله الحق :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ[2] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

(١) القارعة : الداهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم . ويقال : قرعه أمر إذا أصابه . قال ابن عباس : القارعة : النكبة . وقال أيضاً : القارعة : الطلائع والسرايا التى كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . [تفسير القرطبى ٣٦٥٧/٥] .

(٢) القرطاس : الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه . [القاموس القويم ١١٣/٢] . جمعها قراطيس ورد به قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا .. (٩١) ﴾ [الأنعام] .

شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

[الأنعام]

إذن : من كل نظائر تلك الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نأخذ جواب الشرط المناسب لها من تلك الآيات ؛ فيكون المعنى : لو أن قُرآناً سُيِّرتْ به الجبال ، أو قُطِّعَتْ به الأرض ، أو كُلِّمَ به المَوْتى لَمَا آمنوا .

ويُرْوَى أن بعضاً من مُشْرِكى قريش مثل : أبى جهل وعبد الله ابن أبى أمية جلَسَا خلف الكعبة وأرسلا إلى رسول الله ﷺ ؛ وقال له عبد الله : إن سَرَّك أن نتبعك فَسيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنَّا حتى تنفسح ، فإنها أرض ضيِّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً ، حتى نغرس ونزرع ، فلستَ ـ كما زعمْتَ ـ بأهْونَ على ربِّك من داود حين سخَّر له الجبال تسير معه ، وسَخِّر لنا الرِّيح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مَيْرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ، فقد سُخِّرَتْ الريحُ لسليمانَ بن داود ، ولسْتَ بأهونَ على ربِّك من سليمان ، وأحْيى لنا قَصَبَ[١] جَدِّك ، أو مَنْ شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يُحيى المَوْتَى ، ولستَ بأهونَ على الله منه ، فأنزل الحق سبحانه هذه الآية وما قبلها للرد عليهم[٢] .

(١) القصب من العظام : كل عظم أجوف مستدير له مُخٌ . [لسان العرب ـ مادة : قصب] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٦٥٥/٥) وقال : قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك . وانظر : أسباب النزول (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

وكانت تلك كلها مسائل يتلكَّكُونَ بها ليبتعدوا عن الإيمان ؛ فالرسول ﷺ قد جاء بمعجزة من جنْس ما نَبغُوا فيه ؛ وجاء القرآن يَحْمل منهج السماء إلى أنْ تقومَ الساعة .

وقد طلبوا أنْ تبتعد جبال مكة ليكونَ الوادى فسيحاً ؛ ليزرعوا ويحصدوا ؛ وطلبوا تقطيع الأرض ، أى : فَصْل بقعة عن بقعة ؛ وكان هذا يحدث بِحَفْر جداول من المياه ، وقد قال الكافرون :

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء]

والمراد من تقطيع الأرض - حسب مطلوبهم - أن تقصُرَ المسافةُ بين مكان وآخر ، بحيث يستطيع السائر أنْ يستريح كل فَتْرة ؛ فالمسافر يترك فى كل خطوة من خطواته أرضاً ؛ ويصل إلى أرض أخرى ، وكُلٌّ يقطع الأرض على حَسْب قدرته ووسيلة المواصلات التى يستخدمها .

فالمُتْرَف يريد أن تكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض والأخرى ؛ لأنه يملك الجِيَاد التى يمكن أن يقطع بها المسافة بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية ؛ فهو يحب أن تكون المسافات قريبة ليستطيع أنْ يستريح .

ونلحظ نحن ذلك فى زماننا المعاصر ، فحين زادَ الترف صارتْ السيارات تقطَع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقُّف ؛ عكْس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات تحتاج إلى راحة ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون فى مُنتصَف الطريق .

ومثل ذلك قد حدث فى مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ..(١٩)﴾ [سبأ]

أى : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كى يتمتع المُسافر القادرُ بالمناظر الطيبة[١] .

ولاحظنا أيضاً تمادى المشركين من قريش فى طلب المعجزات الخارقة ؛ بأنْ طلبوا إحياء المَوْتى فى قول الحق سبحانه :

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ.. (٣١)﴾ [الرعد]

وبعضهم طلب إحياء قصى بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله ولقريش ؛ ليسألوه : أحَقٌّ ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يأْتِ لمثْل تلك الأمور ؛ وحتى لو كان قد جاء بها لَمَا آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز فى أنه منهج خَاتَمٌ صالح لكل عصر ؛ وتلك معجزته .

ويقول سبحانه :

﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا..(٣١)﴾ [الرعد]

وكلمة « أمر » تدلُّ على أنه شىء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدل على مُتعدِّد ، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسالات والمُعْجزات إنما يدلُّ على

---

(١) وذلك أن الله تعالى أنعم عليهم بأن جعل القرى ظاهرة والمسافات قريبة ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] . ولكنهم طلبوا من الله المباعدة بين أسفارهم فقالوا : ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾ [سبأ] .

أن كُلَّ أمرٍ من أمر تلك الرسالات إنما صدرَ عن الحق سبحانه ؛ وهو الذى اختارَ كلَّ مُعْجزة لتناسب القومَ الذين ينزل فيهم الرسول .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ..(٣١) ﴾
[الرعد]

وكلمة « ييأس » يُقَال إنها هنا بمعنى « يعلم » ؛ فهى لغة بلهجة قريش[1] ، أى : أَلَمْ يعلم الذين آمنوا أن هؤلاء الكفار لم يهتدوا ؛ لأن الله لم يَشَأ هدايتهم .

وكان المؤمنون يودُّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كى يَخفَّ الجهد عن الفئة المسلمة ؛ فلا يضطهدونهم ، ولا يضايقونهم فى أرزاقهم ولا فى عيالهم .

ويوضح الحق سبحانه هنا أن تلك المسألةَ ليست مُرتبطة برغبة المؤمن من هؤلاء ؛ بل الإيمان مسألة تتطلب أنْ يُخرِج الإنسان ما فى قلبه من عقيدة ، وينظر إلى القضايا بتجرُّد ، وما يقتنع به يُدخِله فى قلبه .

وبذلك يمتلىء الوعاء العقدىّ بما يُفيد ؛ كى لا تدخل فى قلبك عقيدة ، وتأتى عقيدة أخرى تطردُ العقيدة ، أو تُزيغ قلبك عمَّا تعتقد ، يقول تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ..(٤) ﴾ [الأحزاب]

فالوعاء القلبى كالوعاء المادىّ تماماً ؛ لا يقبل أنْ يتداخل فيه

(١) قيل : هو لغة هوازن . أى : أفلم يعلموا . وحكاه القشيرى عن ابن عباس . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٥٦) .

جِرْمَان أبداً ، فإنْ دخل جِرْم على جِرْم ؛ إنْ كان أقوى فهو يطرد من القلب الأدْنى منه .

والمثَلُ على ذلك : لنفترض أن عندنا إناءً ممتلئاً عن آخره ؛ ويحاول واحدٌ منا أنْ يضعَ فيه كُرةً صغيرة من الحديد ؛ هنا سيجد أن الماءَ يفيضُ من حَوافِّ الإناء بما يُوازِى حجم كرة الحديد ، وهذا ما يحدث فى الإناء الماديِّ ، وكذلك الحال فى الإناء العَقَديِّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

« لا يجتمع حُبِّى وحبُّ الدنيا فى قلب »[1] .

وهكذا نرى أن هناك حَيِّزاً للمعانى أيضاً مثلما يوجد حَيِّز للمادة ، فإذا كنتَ تريد - حقيقةً - أن تُدخِل المعانى العَقَدية الصحيحة فى قلبك ؛ فلا بُدَّ لك من أنْ تطردَ أولاً المعانى المناقضة من حَيِّز القلب ، ثم ابحَثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أيٍّ من المعنيين ؛ وما تجده قويَّ الدليل ؛ صحيحَ المنطق ؛ موفورَ القوة والحُجَّة ؛ فَأدخلْه فى قلبك .

ولم يفعل الكفار هكذا ؛ بل تمادَوْا فى الغَيِّ إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة ؛ ولم يُصر على المُعْتَنق القديم ؛ بل درسَ وقارنَ ؛ فأسرع إلى الإسلام .

---

(١) أورد أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٣/٢٠٨) آثاراً توضح عدم اجتماع حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب عبد ، قال : « قال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك » .

أما مَنْ كان قلبه مشغولاً بالعقيدة السابقة ؛ ويريد أنْ يُدخل العقيدة الإسلامية فى قلبه ؛ فهو لم ينجح فى ذلك ؛ لأن قلبه مشغولٌ بالعقيدة القديمة .

وإذا كنت يا رسول الله ﷺ تريد من هؤلاء أن يؤمنوا ؛ فلا بد أن يعتمد ذلك على إرادتهم ، وأنْ يُخرِجوا من قلوبهم العقيدة الفاسدة ؛ وأنْ يبحثوا عن الأصحِّ والأفضل بين العقيدتين .

ولذلك يعلمنا الحق سبحانه كيف نصل إلى الحقائق بسهولة ، فيقول لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

أى : قُلْ يا محمد لِمَنْ كفر بك : إنِّى أعظكم عظَة ، وأنت لا تَعظ إلا مَنْ تحب أن يكون على الحق ؛ وهذا يُفسر قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ولهذا يريد ﷺ أن تكونوا مؤمنين ؛ لذلك يدعوكم أن تقوموا لله ؛ لا لجَاه أحد غيره ؛ لأن جاه أىِّ كائن سيزول مَهْمَا كان هذا الواحد ، ولا تقولن لنفسك : إن العبيد سيتساوون معك .

بل قُمْ لله إما مثنى أى أن تكون قائماً ومعك آخر ؛ أو يقوم غيرك

---

(١) الجنة : الجنون .

(٢) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشقَّ عليه . [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

اثنين اثنين ليتناقش كل منكم مع مَنْ يجلس معه ؛ ولا يتحيز أحد منكم لفكْر مُسْبق بل يُوجِّه فكره كله متجرداً لله .

وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذى جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقشه فيستعرضان معه تاريخ محمد ﷺ وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أىٌّ منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضمَّ إليهما ثالثٌ ؛ فكل واحد يريد أن يعتز برأيه ؛ ويرفض أن يقبل رأى إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً فى المناقشة ؛ ويرفض لنفسه احتمال أنْ يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

و « الجِنَّة » هى اختلال العقل ؛ أى : أن مَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلُك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخُلُق ، فيقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقَال : فلان على خُلُق . أى : يملك من الصفات ما يجعله على الجَادَّة من الفضائل ؛ مثل الصِّدْق والأمانة ؛ وهذه صفاتٌ يَنْظمها فى مواقفها الفكْر العقلىّ ؛ وهو الذى يُميِّز لنا أىَّ المواقف تحتاج إلى شِدّة ؛ أو لِين ؛ أو حكمة ، وكلُّ هذه أمور يُرتِّبها العقل .

والخُلُق الرفيع لا يصدر عن مجنون ؛ لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ؛ لذلك لا نحاسبه نحن ؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبحثوا : هل محمد يعانى من جِنَّة ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقدَّماً أن رسول الله ﷺ بشهادتهم يتمتَّع بكمال الخُلق ؛ بدليل أن أهمَّ ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه رسول الله ﷺ .

وبدليل أنه ﷺ حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين فى أمر بناء الكعبة ؛ ارتضوه حَكَماً(١) .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾

[القلم]

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ؛ ولم يكُن الله ليهديَهم ؛ لأنهم كانوا لا يملكون أدنى استعداد للهداية ؛ وكأنهم أدمنُوا الكفر والعياذ بالله ؛ وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كفراً ؛

(١) كان عُمر رسول الله ﷺ حينئذ خمساً وثلاثين سنة ، أى : قبل البعثة بخمس سنين . وذلك أن قبائل قريش اختصمت فيما بينها من يضع الحجر الذى فى موضع الركن ، حتى أنهم أعدوا للقتال ، ثم إنهم اجتمعوا فى البيت الحرام وتشاوروا ، فأشار أبو أمية بن المغيرة عليهم بأنْ يُحكِّموا أول داخل عليهم من باب بنى شيبة ، فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : « هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد » فقال ﷺ : « هلم إلىَّ ثوباً » فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١٩٦/١ ، ١٩٧) .

فمـا فى تلك القلوب من كفر لا يخـرج منها ؛ وما بخارجـها لا يدخل فيها .

وقد ظَنَّ بعض من المسلمين أن كُـفْر هؤلاء قد يُشـقى المؤمنين بزيادة العَنت من الكافـرين ضدهم ؛ لذلك يوضح الحق سبـحانه لأهل الإيمان أن نَصْره قريب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

أى : اطمـئنوا يـا أهل الإيمـان ؛ فلن يظلَّ حـال أهل الـكفـر على ما هو عليه ؛ بل ستصيـبهم الكوارث وهم فى أماكنهم ، وسيشاهدون بأعينهـم كيف ينتشـر الإيمان فى المـواقع التى يسودونهـا ؛ وتتسع رقعةُ أرض الإيمـان ، وتضيق رقعة أهل الكفـر ؛ ثم يأتى نَصْر الله : وقـد جـاء نَصْـر الله ولم يَبْقَ فى الجـزيرة العـربيـة إلا مَنْ يقـول : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وهكذا تنبأتْ الآية بمـجىء الأمل بعد اليـأس ، كى لا يظلَّ اليأس مُـسَيْطراً على حـركة الـمسلمـين وعلى نفـوسهم ، واسـتجـاب الحق سبـحانه لدعوته ﷺ حـين دعاه قـائلاً : « اللهمَّ اجعلها علـيهم سنين كسنين يوسف »[1] .

وقُتِل صناديدُهم واحداً وراء الآخر ؛ ولكـن عنادهم استمر ؛ وبلغ

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كـان إذا رفع رأسه من الركـعة الآخـرة يقول : «اللهم اشـدد وطأتك على مـضر ، اللهـم اجعلهـا سنين كـسنى يوسف » الحـديث أخرجـه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

العناد حَدَّ أن ابنتَيْ رسول الله ﷺ كانتا مُتزوِّجتَيْنِ من ابنيْ أبى لَهَب ؛ فلما أعلن النبى ﷺ رسالته ؛ قال أبو لهب وزوجته : لا بد أن يُطلِّق أبناؤنا بنات محمد ؛ فلما طلَّق أوَّلهما بنت رسول الله ﷺ دعا رسول الله ﷺ قائلاً : « أما إنى أسأل الله أن يسلِّط عليه كَلْبه»[(١)].

وها هو أبو لهب الكافر يقول : « لا تزال دعوة محمد على ابنى تشغل بَالى وتُقلقنى ، وأخاف أن أبعث بولدى إلى رحلة الشام كى لا تستجيب السماءُ لدعوة محمد » .

وكان من المناسب ألاَّ يخاف ، وجاء ميعاد السفر لقافلة الشام . وسافر أبو لَهَبٍ مع ولديْه ، وحين جاء ميعاد النوم أمر أبو لهب الرجال أن يقيموا سياجاً حول ولده ـ وكأن الرجال حوله كخط بارليف الذى بنتْه إسرائيل على قناة السويس ليمنع عنها صَيْحة النصر التى حملت صرخة الله أكبر ـ ثم أصبح الصبح فوجدوا أن وحشاً قد نهش ابن أبى لَهَب .

وقال الناس : كان أبو لَهَب يخشى دعوة محمد ؛ ورغم ذلك فقد تحققت . فقال واحد : ولكن محمداً دعا أن ينهشَه كَلْب وقال له « أكلك كلب من كلاب الله » ولم يَقُلْ فلينهشْكَ سبع[(٢)] ، فرد عليه مَنْ

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء ، وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

(٢) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح البارى (٤/٣٩) .

سـمعـه : وهل إذا نُسب كلب الله أيكون كلباً ؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دَقَّتْ القـارعة بيت الرجل الذى أصـرَّ على الكفر ، وتحـقق قول الله :

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ..(٣١) ﴾ [الرعد]

نعـم ، فـهم قـد أسـرفـوا فى الـكُفْـر والعـنـاد ؛ فـجـاءتْهم القارعـة ؛ والقارعة هى الشىء الذى يطرق بعنف على هادىء ساكن ، ومنهـا نأخذ قَرْع الـباب ، وهناك فَرْق بـين « نَقْر البـابِ » و « قَرْع الباب » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ..(٣١) ﴾ [الرعد]

يُوضِّحـه أمْر صُلْح الحديبـية الذى جاء بشـارةً للمسلمين ؛ فـقد صار كفـار قريش يفاوضون رسول الله ﷺ ، وكـان النبى ﷺ يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ؛ فتـأتى القبائل أفواجاً وهى تعلن إسلامهـا ؛ ويبلغ ذلك قريشاً بأن الإسلام يواصل زَحْـفه ؛ ثم تأتيهم القارعة بأن يدخل الرسول ﷺ مكة ؛ ويتحقق وعد الله بأن يدخلوا هم أيضاً إلى حظيرة الإسلام .

أو : أن يكون المقصود بـ :

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ..(٣١) ﴾ [الرعد]

هو مجيء يوم القيامة الذى يحمل وَعْد الله بأن يحُلَّ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفى هذا القول تطمين لِمَنْ قال لهم الحق سبحانه فى أول هذه الآية :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ..(٣١) ﴾ [الرعد]

ذلك أن الله لا يُخلف وعده ، وهو القائل فى تذييل هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن كلمة « وَعْد » عادةً تأتى فى الخير ، أما كلمة « وعيد » فيه فتأتى غالباً فى الشر .

والشاعر يقول :

وَإنِّى إذَا أَوْعدْتُه أوْ وَعَدتُه لَمُنجِزٌ مِيعَادِى ومُخلِفٌ مَوْعِدى

فالإيعاد دائماً يكون بِشَرٍّ ؛ والوَعْد يعنى الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين . أو نستطيع أن نقول : إن المسألة بتعبير المؤمنين ؛ أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التى تصيب أهل الكفر ؛ أو تأتى حَوْل ديارهم ، وفى ذلك وَعْد يُصبِّر به سبحانه المؤمنين ؛ وهو فى نفس الوقت وعيدٌ بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

هو قضية قرآنية ستتحقق حَتْماً ؛ في كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان ؛ وهي كقضية تختلف عن وَعْد أو وَعيد البشر ؛ لأن الإنسان قد يَعِد أو يتوعَّد ؛ لكن أغيار الحياة تُصيبه ؛ فتُعطل قدرته على إنفاذ الوَعْد أو الوعيد .

أما حين يَعِدُ الله فالأمر يختلف ؛ لأن وَعْده هو وَعْد مُطْلق ؛ وهذا هو معنى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ(١) لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾

ويقال « هَزَأ بفلان » أي : سخر منه ، أما « استُهزِئ بفلان » أي : طُلِب من الغير أنْ يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثمه وإثم مَنْ أوعز له بالسخرية من هذا الشخص .

---

(١) أملى له : أطال له ووسَّع له فيما هو فيه من خير أو شر . [القاموس القويم ٢/٢٣٦] وأملى الله له : أمهله وطوَّل له . والإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . [لسان العرب ـ مادة : ملا] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد]

أى : لستَ بِدعاً يا محمد فى أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمثَلُ هو الحَكَم بن أبى العاص أبو مروان[1] الذى كان يُقلِّد مشية النبى ﷺ ؛ وكان رسول الله يمشى كأنما يتحدَّر من صبب[2] ؛ وكان بصره دائماً فى الأرض .

ولم يكن الناس مُعْتادين على تلك المِشْية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسيرون بغرور مستعرضين مناكبهم .

وحين قلَّد الحكَمُ رسول الله رآه ﷺ بنور البصيرة ، فقال له ﷺ : « كُنْ على هذا »[3] ، فصارت مِشْيته عاهة ، بينما كانت مِشْيَة رسول الله تطامناً إلى ربه ، وتواضعاً منه ﷺ .

ونفَى رسول الله ﷺ الحَكَم إلى الطائف ؛ وراح يَرْعى الغنم

(١) أسلم يوم فتح مكة ، وسكن المدينة، ثم نفاه النبى ﷺ إلى الطائف ، ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان ومات بها عام ٣٢ هـ . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٨/٢ ، ٢٩] .

(٢) عن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط عن صبب لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ » أخرجه أحمد فى مسنده (٩٦/١ ، ١١٦) والترمذى فى سننه (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨/٢ ، ٢٩) فقد أورد العسقلانى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كان الحكم بن أبى العاص يجلس عند النبى ﷺ ، فإذا تكلم اختلج فبصر به النبى ﷺ فقال : « كن كذلك » فما زال يختلج حتى مات . قال العسقلانى : « فى إسناده نظر » .

هناك ، ولم يَعْفُ النبى ﷺ عنه ؛ وكذلك أبو بكر فى خلافته[١] ؛ ولا عمر بن الخطاب ؛ ولكن الذى عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان قريباً له[٢] .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه فقال لى : إن استطعت أن تعفوَ عنه فَاعْفُ ، وحين وَلِيتُ أمرَ المسلمين عَفَوْتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولَّى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ؛ وكان لابنه الوليد خَيْل تتنافس مع خَيْل أولاد يزيد بن معاوية ؛ واحتال أولاد يزيد بالغش ، ووضعوا ما يُعرقل خَيْل الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتم الوليدُ أبناء يزيد ؛ فذهب أولاد يزيد إلى عبد الملك يشكُون له ولده ؛ وكان الذى يشكو لا يتقن نُطْق العربية دون أخطاء ؛ فقال له عبد الملك : مَا لَكَ لا تقيم لسانك من اللحْن[٣] ؟ فردَّ الذى يشكو ساخراً : « والله لقد أعجبتْنى فصاحةُ الوليد » . ويعنى : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال

---

(١) روى الطبرانى من حديث حذيفة قال : لما ولى أبو بكر كُلِّم فى الحكم أن يرده إلى المدينة فقال : ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ . أورده ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢٨/٢) .

(٢) ذكر ابن حجر فى الإصابة (٢٨/٢) أنه عمُّ عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٣) اللحن : الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . وقال ابن برى وغيره : للحن ستة معانٍ : الخطأ فى الإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعنى . [لسان العرب ـ مادة : لحن] .

لسان مَنْ يشكو ؛ فكلاهما لا ينطق بِسَلاسَة ، ويكثر اللحْنَ فى النُّطْق بالعربية .

فقال عبد الملك : أتُعيِّرنى بعبد الله ابنى الذى لا يُتقن العربية دون لَحْن ؟ إن أخاه خالداً لا يلحن . وتبع ذلك بقوله : اسكُتْ يا هذا ، فلستَ فى العِير ولا فى النَّفِير .

وهذا مَثَلٌ نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عَبْر قريش ؛ حيث كانت السلطةُ فيها ذات مَصْدرين ؛ مصدر العير ؛ أى : التجارة التى تأتى من القوافل عَبْر الشام وقائدها أبو سفيان ؛ والنَّفير ؛ وهم القَوْم الذين نَفَرُوا لنجْدة أبى سفيان فى موقعة بدر ؛ وكان يقودهم عتبة ابن يزيد . فقال ابن يزيد : ومَنْ أوْلَى بالعير والنَّفير منِّى ؟ ويعنى أنه حفيدُ أبى سفيان من ناحية الأب ؛ وحفيدُ عُتْبة من ناحية الأم .

وأضاف : لكن لو قُلْت شُوَيْهات وغُنَيْمات وذكرت الطائف لكنتَ على حق ؛ ورَحِم الله عثمان الذى عفَا عن جَدِّك ، وأرجعه من المَنْفى .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكان أىّ إنسان يسخر من رسول الله ﷺ يَلْقَى عقاباً إلهياً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد]

فأنت يا رسول الله لستَ بِدْعاً فى الرسالة ، ولك أسوة فى الرسالة ، والحق سبحانه يَعِدُكَ هنا فى مُحْكَم كتابه :

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٢) ﴾ [الرعد]

أى : أمهلتُ الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه تَرْك العقوبة على الذَّنْب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمثَل هو أن تترك مخطئاً ارتكبَ هَفْوة ؛ إلى أنْ يرتكب هَفْوة ثانية ؛ ثم ثالثة ، ثم تُنْزِل به العقاب من حيثُ لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث فى عالم البشر ؛ فما بَالُنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل :

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الأعراف]

ويقول تعالى :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

تماماً مِثْلما نجد مَنْ يصنع فَخّاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

توضح أنه كان عقاباً صارماً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ إنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

إذن : فلسوْفَ يَلْقَى الذين استهزءوا بالرسل العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾

ولقائل أنْ يتساءل : ألَمْ يكُنْ من الواجب ما دام قد قال :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٣٣) ﴾ [الرعد]

أن يأتى بالمقابل ، ويقول : كمَنْ ليس قائماً على كل نفس بما كسبت ؟

ولمثل هذا السائل نقول : إنها عظمة القرآن الذى يترك للعقل

---

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] . يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم ٢/ ٨٨] .

ما يمكن أن يستنبطه ؛ فيأتى بأشياء تتطلَّب التفكير والاستنباط ، كى يتنبَّه الإنسان أنه يستقبل كلام رَبٍّ حكيم ؛ وعليه أن يبحث فيه .

ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : « ثَوِّروا(١) القرآن » أى : أثيروه ، كى تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعنى أنه هو الذى يُديره ويُدبِّره ، ولا تَخْفَى عليه خافية . وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة القيام ؛ كى نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة قعود ؛ بل يديره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خَفِىّ .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبتْ إن خيراً فخيْر ؛ وإنْ شراً فشرّ ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نَفْعاً ؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساوى بين الذى يقوم على أمر كل نفس ، بغيره مِمَّنْ ليس كذلك ؟

ولكن هناك مَنْ قال فيهم الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ..(٣٣) ﴾ [الرعد]

أى : جعلوا للقائم على أمر كُلِّ نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم على أمر نَفْسه ؛ وبالتالى لا يقدر على أمر غيره ؛ بل قد يُصَابُ الصَّنم من هؤلاء بشَرْخ ؛ فيأتى مَنْ يعبدونه ليقوموا على أمره صارخين بأن إلههم قدْ انشرخَ ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيته ،

(١) تثوير القرآن : قراءته ومُفَاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : لِيُنَقِّر عنه ويُفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته . [لسان العرب ـ مادة : ثور] .

فكيف يُسوُّونَ ذلك الصنم بالله الذى لا يحدُّه شىء ولا يحدُّ قدرته شىء ؟

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ .. (٣٣) ﴾ [الرعد]

دليل على النص المحذوف : « كمن هو غير قائم على كل نفس » ، فسبحانه ليس كهذه الأصنام العاجزة ؛ لأنه سبحانه قائم على كل نفس ؛ نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

ولذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ .. (٣٣) ﴾ [الرعد]

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قُولوا أسماء مَنْ تعبدونهم من غير الله ؛ وهى أحجار ، والأحجار لا أسماءَ لها ؛ وهم قد سَمَّوْا الأصنام بأسماء كاللات والعُزَّى وهُبَل ؛ وهى أسماء لم تُضفْ لتلك الأصنام شيئاً ، فهى لا تقدر على شىء ؛ ولو سَمَّوْهَا لَنُسبت لعمرو بن لُحَىّ ، الذى أوجدهم[1] ؛ وهُمْ سَمَّوْها ساعة أنْ نحتُوها .

---

(١) قال ابن هشام فى السيرة النبوية (٧٧/١) : « حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه » .

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسمِّى هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِب فى كَذِب ، لذلك يسألهم رسول الله ﷺ عن أسماء تلك الآلهة . ويقول لهم : هل تنبئون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم فى كونه الذى أوجده من عدم ؟

سبحانه يعلم كل ما خلق ؛ وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول ؛ أى : قول لا معنى له ؛ لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطنَ لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفَوْا بالظاهر والمُسمَّى غير موجود .

ويقول الحق سبحانه :

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ..(٣٣)﴾ [الرعد]

أى : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهى ليست كذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ [الرعد]

أى : أن العذاب الذى يلْقوْنَه فى الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أنْ يقعَ لهم عذابٌ فى الحياة الدنيا ؛ ولأن مَنْ يؤجِّل عذابه للآخرة ؛ لا بد أن يرى فى نفسه آية العذاب قبل أن يلْقى عذابه فى الآخرة .

إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة ؛ ولذلك نجد القوانين وهى تُسَنُّ لِتُطبق على المنحرف ؛ ومَنْ يرتكب الجُرْم يخاف أن تقع

عليه العين ؛ وإنْ رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى سورة الكهف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ [1] سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ [2] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف]

أى : أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر فى هؤلاء الناس ، فأقامه على أساس من الثواب والعقاب ؛ فمَنْ أحسنَ فلَهُ الجزاء الحسن ؛ ومَنْ أساء يَلْقى العقاب ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بَطْش مَنْ لا يؤمنون بالله .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ فى الدنيا بالقتل والأسْر والمصائب والكوارث التى لا يقدرون عليها ، وفَوْق

---

(١) السبب : الوسيلة وكل ما يُتوصَّل به إلى شىء . [القاموس القويم ١/٢٩٩] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٢) : « أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه » .

ذلك لهم عذاب فى الآخرة أكثر شدةً من عذاب الدنيا ؛ فليس لهم مَنْ يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عِصْمة .

وفى المقابل يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

والمصدر الأساسى الذى وعدَ المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد بلَّغ عنه الرسل ـ عليهم السلام ـ هذا الوعد ، وتَلاهُمُ العلماء المُبلِّغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر الأساسى ، والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى[1] الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر]

ويقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة]

وهكذا تكون التَّوْفية قد آلتْ إلى الله ؛ وآلتْ إلى مَلَك الموت ، وقد أخذ مَلَكَ الموْت مسئولية التَّوفية من إسناد الحق له تلك المهمة ؛ ويكون نسبتها لملَك الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذى يُوكِّل له الحق سبحانه تنفيذ المهمة .

---

(١) توفى الله فلاناً ، أو توفى الملك فلاناً : أماته وقبض روحه . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] .

ومرة يأتـى الحق سبحـانه بالمـصدر الأصلى الذى يُصـدِر الأمر لملَك الموْت بمباشرة مهمته .

وهنا فى الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

وهى مَبْنية لمَـا لم يُسَمَّ فاعله ؛ فالوعد منه سـبحانه . ونعلم أن الرسول ﷺ يَعـد أيضاً ، فها نحن قـد جاء إلينا خبـر بيعة العقـبة ؛ حين أخذ البيـعة من الأنصار ، وقالوا له : خُذْ لنفسك ، فـأخذ لنفسه ما أراد ، ثم قـالوا له : وماذا نأخـذ نحن إنْ أدَّيْنَا هذا ؟ فقـال لهم : « لكم الجنة »[1] .

وقـد قال ﷺ ذلك ؛ لأن العـمل الذى فعلوه ؛ لا يكفـيه أجـراً إلا الجنة ، ومن المـعـقول أن أىَّ واحـد من الذين حـضروا العـقـبة قـد يتعرض للمـوت من بعد معاهدة رسـول الله ﷺ ، فلو أنه وعدهم بمَا فى الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ؛ فالذى يموت قبل هذا لا بُدَّ أن يدرك شيـئاً ممَّـا وعد الرسول مَنْ عـاهدوه ؛ ولذلك أعطاهم ما لا ينفد ، وهو الوَعْد بالجنة .

والحق سبحانه هنا ـ فى الآية التـى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

---

(١) أخرجـه أحمـد فى مسنده (٤/١١٩ ، ١٢٠) من حـديث أبى مسـعود البـدرى الأنصارى . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/٤٨) . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٣٣) .

أى : أنه يضرب لنا المَثَل فقط ؛ لأن الألفاظ التى نتخاطَبُ بها نحن قد وُضعتْ لمَعانٍ نعرفها ؛ وإذا كانت فى الجنة أشياء لم تَرَهَا عَيْنٌ ، ولم تسمعها أذنٌ ، ولم تخطر على بال بشر ؛ فمنَ المُمْكن أن نقول : إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدى معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من الملذَّات ؛ ولكن يأخذ منها المُكدِّرات والمُعكِّرات[1].

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ، فالمَثَل يعطينى صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه ؛ لأن معنى التمثيل أن تُلحق مجهولاً بمعلوم لتأخذَ منه الحكم .

مثلما تقول لصديق : أتعرف فلاناً ؛ فيقول لك : « لا » . فتقول له : « إنه يشبه فلاناً الذى تعرفه » .

وأنت تفعل ذلك كى تشبه مجهولاً بمعلوم ؛ لتأتى الصورة فى ذهْن سامعك .

ويقول الرسول ﷺ شرحاً لما أجْمله القرآن :

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ..(٧١)﴾ [الزخرف]

ويضيف ﷺ : « فيها مَا لاَ عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خَطر على قَلْب بشر »[2] .

---

(١) قال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] وقال فى آية أخرى : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه .

وحين تُدقِّق في هذا القول النبويّ الكريم تجد الترقِّي كاملاً ؛ فقوله : « ما لا أذن سمعتْ » جاء لأنه يعلم أن مُدْركَات العيْن محدودة بالنسبة لمَا تعلمُ الأذن ؛ لأن الأذن تسمع ما لا تدركه العين ؛ فهي تسمع ما يراه غيرُك بالإضافة إلى ما تراه أنت.

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم تميزه ، بخلاف العين فهي محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ، ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا الفوق .

ثم يأتي الترقِّي الأكبر في قوله : « ولا خطر على قلب بشر » . والخواطر أوسَعُ من قدرة الأذن وقُدْرة العين ؛ فالخواطر تتخيَّل أشياء قد تكون غيرَ موجودة .

وهكذا نرى عَجْزَ اللغة عن أنْ تُوجد بها ألفاظ تعبر عن معنى ما هو موجود بالجنة ، ولا أحدَ فينا يعلم ما هي الأشياء الموجودة بالجنة ، وما دام أحد منا لم يَرَ الجنة ؛ وما دام الرسول ﷺ قال : « فيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ».

فلا بُدَّ أن نعلم قَدْر عَجْز اللغة عن التعبير عَمَّا في الجنة ، فإذا أراد الله أنْ يُعبِّر عَمَّا فيها ؛ فهو يُوضِّح لنا بالمثَل ؛ لا بالوصف ، لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لمَا هو موجود في حياتنا ؛ ولا توجد ألفاظ في لغتنا تُؤدِّي معاني ما في الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد].

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلَّص المَثَل من شوائبه التى نعرفها فى الدنيا ، فالمياه عندما تجرى ؛ تكون حُلْوة ورائقة وصافية ؛ وإنْ ركدتْ فهى تأسَنُ[1] وتكون عَطِنة .

ولذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه أن المياه فى الجنة غير آسنة ؛ وأنها تكون أنهاراً منزوعاً من مياهها ما يُكدِّرها .

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طَعْمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو ؛ فَهُمْ يحلبون الماشية ، ويحتفظون بألبانها فى قِرَب لمُدد طويلة ؛ فيتغير طَعْم اللبن ؛ ولذلك يضرب لهم المثَل بوجود أنهارٍ من لبن لم يتغير طَعْمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عَسَل مُصفَّى ، والعسل ـ كما نعرف ـ كان فى الأصل يأتى من النحْل الذى كان يسكن الجبال قبل استئناسه ؛ ووَضْعه فى مناحل فى الحدائق .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾ [النحل]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدمَ عسلٍ فى العالم هو الذى كان موجوداً فى الكهوف الجبليّة ؛ ثم يليه فى العمر العسل الذى جاء من خلايا النحل ؛ تلك الخلايا التى أقامها

(١) أسن الماء : تغيَّرت رائحته . والماء الآسن : هو الذى لا يشربه أحد من نَتْنه . [لسان العرب ـ مادة : أسن] .

النحل بعد استئناسه ؛ ومن بعد ذلك يأتى العسل الذى أقمْنَا نحن له المنَاحل .

وقد ميَّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عَسَل مُصفًّى ، وبذلك يُقدِّم لنا خَيْر ما كنا نُحبه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكدِّره .

ويوضِّح سبحانه أيضاً أن فى الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها خَمْر تختلف عن خمر الدنيا ؛ فهى لا تؤثر على التكوين العُضْوى للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذةٌ للشاربين ؛ لأنها من كحول يَكْوى الفم ويَلْسعه ؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكُبها فى فمه لتمُرَّ بسرعة فلا يشعر بلسعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب ؛ حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ؛ فنجد مَنْ يشربها يتمهَّل ليستبقى أثرها فى فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة :

﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ[(١)] .. (٤٧) ﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكْر . والغَوْل : أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

أى : أنه سبحانه ينفى عن خَمْر أنهار الجنة كُلَّ المُكدِّرات التى توجد فى خمر الدنيا .

إذن : فساعةَ تسمع مثلاً عن الجنة ؛ فاعلم أنه مَثَلٌ تقريبىّ ؛ لأنه لا يمكن أن تأتى الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبِّر عنها ؛ وهى لم توجد عندنا ؛ وسبحانه لا يخاطبنا إلا بما نعلم من اللغة ؛ لذلك يأتى لنا بالمثَلِ المضروب لنأخذ منه صورة تقريبية .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..(٣٥)﴾ [الرعد]

ونعلم أن عَصَب حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء ؛ ألم يطلبوا من الرسول أن يُفجِّر لهم الأنهار تفجيرا[1] ؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآنى عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..(٣٥)﴾ [الرعد]

مثلما قال فى الآية التى نحن بصَدد خواطرنا عنها .

ومرَّة يقول سبحانه :

﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ..(١٠٠)﴾ [التوبة]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية فى النص ، بمعنى أن :

(١) قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)﴾ [الإسراء] .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

تُوضِّح أن منابع تلك الأنهار تأتى من تحت تلك الجنة مباشرة ؛ فلا يَقِلّ الماء فى تلك الأنهار أبداً .

ويُقال : إن الفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطىء تحتضنها ؛ أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطىء تحجزها[1] .

وتجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ، ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكُلٌّ ذلك من صَنْعة رَبٍّ حكيم قادر .

أما قوله :

﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ..(١٠٠) ﴾ [التوبة]

أى : أن منابعها ليست من تحتها مباشرة ؛ ولكنها تأتى دون نَقْصٍ من جهة أنت لا تعلمها ؛ وهو سبحانه قادر على كل شىء .

ويتابع سبحانه ، فيقول عن تلك الجنة :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

والأُكل هو ما يُؤكَل ، وسبحانه القائل :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ..(٢٥) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أورد السيوطى فى هذا آثاراً فى كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (٩٥/١) منها :

– أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والضياء المقدسى كلاهما فى صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض ، حافتاها خيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر . قلت : يا رسول الله ما الأذفر ؟ قال : الذى لا خلط معه » .

وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل ؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه ؛ وبعد أن يُشبِع جُوعَه ؛ قد يطلب أن يُرفعَ الطعام من أمامه ، إلى أنْ يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومنْ يحبون الطعام فى حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : « أشعر ببعض الضيق لأنِّى شبعتُ » ، فهو فى عراك بين نفس تشتهى وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أنْ يستمر فى تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب امبراطورية عُظْمى زَلْزلها الإسلام بحضارته الوليدة ، وأرسل امبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

فأرسل لهم أحدَ العلماء ؛ وسألوه : يقول قرآنكم إن أُكُل الجنة دائم ؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شيء يُؤخذ منه لا بُدَّ له أن ينقص ؛ فكيف يكون أُكُل الجنة دائماً ؟

قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فأحضروا له المصباح ، وأشعله أمامهم . وقال لكل منهم : فَلْيأْتِ كل منكم بمصباحه . فأحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : فَلْيُشعِل كل منكم مِصْباحه .

وهنا سألهم : ما الذى أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح ؟ قالوا : لا شىء . فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المثَل بأُكُل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد فى اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المَدَد ، أما الجنة فمدَدُهَا من الله .

وهناك مَنْ قال : هل نتغوَّط فى الجنة ؟ فَردَّ عليه واحد من العارفين : لا . فتساءل : وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة ؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل فى بطن أمه ؛ حيث يحترق هذا الفائض فى مَشيمة[1] الطفل ؛ والطفل فى بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمداً على غذاء يأتيه من أمه عَبْر الحَبْل السُّرِىّ .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده فى حياتنا اليومية ، وبين ما أعدَّه الله للمتقين ، وهو القيُّوم على كُلِّ أمْرٍ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

يعنى : أن الطعام موجود ولا ينتهى وكذلك الظل . والظل حَجْب المضىء عن مكان ؛ أو حَجْب مكان عن المضىء ، ولا أحد يعلم أنه ستوجد هناك شمس أم لا ؛ والعقل البشرى قاصر عن تخيُّل ذلك ؛

---

(١) المشيمة للمرأة هى التى يكون فيها الولد . قال ابن الأعرابى : يُقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والحَوْران والقميص . [لسان العرب ـ مادة : شيم] .

فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شيء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾ [النساء]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة]

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : يا متقى الله ؛ ووضعتَ بينك وبين صفات جلاله وقاية ، ولم تقربْ محارمه واتبعتَ منهجه ؛ ستجد أنه سبحانه يُجازيك بصفات كَماله وجَماله ؛ فيُنزلك الجنة التى وعدكَ بها .

لذلك إنْ وجدتَ مشقَّة فى التكليف فعليك أن تعلمَ أن جزاء تلك المشقَّة هو الجزاء الجميل ؛ لأنك صدَّقْتَ رسولك ﷺ حين قال : « حُفَّتْ الجنة بالمكَاره ؛ وحُفَّتْ النار بالشهوات »[1] .

والعاقل ساعةَ يرى تكليفاً يحُدُّ من حريته ؛ فهو يستحضر الجزاء على تلك المشقَّة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو فى ظاهره شهوة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الترمذى : « حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح » .

عاجلة ؛ فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبعدها .

وأى من الجزاء الطيب أو العقاب قد يأتى فجأة ؛ لأن الموتَ لا ميعادَ له ؛ ونحن نُصدِّق قول رسولنا ﷺ :

« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته »[1] .

وهكذا يُضخِّم الحق سبحانه من جزاء المؤمن المُتقِّى فيعشق العمل ، ويتحمل مشاقّ التكليف ليكون مَوْصُولاً بالجزاء الطيب ، فهذا الجزاء هو عُقْبى العمل الحسن فى الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هى ألاَّ يوجد بَعْد للغاية ؛ لأنها غاية الخلود لا تعرف البعدية .

وما دامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهى تستحق أن تكون غايةَ المؤمن وعاقبةَ عمله ، والتزامه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هى عاقبة الكافرين المُكذِّبين ؛ حيث يروْنَ الخير مصير المؤمنين ؛ ويروْنَ الشرَّ مصيرهم ؛ فيُجمع عليهم التنغيصُ ؛ مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ؛ ومرة بأن يَرَوْا ما أُعِدَّ لهم من شَرٍّ .

لذلك قال سبحانه :

﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ [الرعد]

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم » الحديث .